مقدمة

إلى چسيكا
على وچيرمى

حينما خاطب الرئيس چورج دبليو. بوش الأمة فى أعقاب هجمات ١١ سبتمبر ٢٠٠١ أطَّر الحادث داخل سؤال بدهى مكون من خمس كلمات [بصيغته الإنجليزية] «لماذا يكرهوننا؟ Why do They Hateus»، وجاءت إجابته عن السؤال بدهية وواضحة بنفس الدرجة: «يكرهون حرياتنا - حريتنا الدينية، حريتنا فى التعبير، حريتنا فى التصويت والتجمع والاختلاف مع بعضنا».

وإذا نحّينا جانباً حقيقة أن السؤال والإجابة لم يحددا من المقصود بـ «هم» إلى حد كبير، إلا أنه من المهم أن تبين أن هذه الممارسة أوفت بحاجة خطابية في لحظة بعينها فيما كان الناس يحاولون استيعاب تلك الأفعال الرهيبة. كان من المنطقي، وبأسلوب أكثر تعقيداً، طرح السؤال عن الأفكار التي يعتنقها هؤلاء الإرهابيون عن الولايات المتحدة والتي ألهمتهم القيام بتلك الأفعال. بالطبع، فقد أضمر الأسلوب الذي أطّر به الرئيس بوش المسألة وأوحى بسؤال على نفس الدرجة من الأهمية، وعدم التحديد: ما فكرتنا [نحن] «عنهم»؟ أو كيف نفكر فيهم؟

هذا السؤال الضخم الحاسم هو ما أعالجه في كتاب **«تخيل الشرق الأوسط»**. إن الفرضية الأساسية التي أعمل وفقها هي أن ممارسة الولايات المتحدة للقوة والسطوة ثقافياً، اقتصادياً، عسكرياً، وسياسياً في الشرق الأوسط، ظلت ممكنة

ومسوغة ومستدامة ومدعومة من خلال الأساليب المحددة التى يفكر بها الأمريكيون فى المنطقة، وفى الشعوب التى تسكنها، والقوى النشطة هناك، ويفسرونها وفقا لذلك. من ثم وباستعارة مِنّى لصياغة أتت فى كتاب دايفيد إنجرمان عن أسلوب عمل خبراء روسيا والسوفييت فى الولايات المتحدة فى القرنين التاسع عشر والعشرين، أتفحص فى الكتاب الأساليب التى بها فهم الخبراء، والأكاديميون، ورجال الأعمال، ومسئولو الحكومة، والصحفيون فى الولايات المتحدة، والذين كانوا يتلقون الأموال من أجل تفسير الشرق الأوسط للجماهير الأمريكية، أساليب فهمهم للمنطقة منذ نهاية الحرب العالمية الأولى، تقريبا، وحتى السنوات الأخيرة من ستينيات القرن العشرين. أرى أنه، وبمرور الوقت، فإن هؤلاء المحللين، والمعلقين، والخبراء، والمراقبين والمتخصصين فسروا الشرق الأوسط بأسلوبين أساسيين، مما يضفى

على العنوان: «تخيل الشرق الأوسط» معنى مزدوجاً. أولاً، فقد تخيلوا أن للمنطقة خصائص معينة، تتكشف فى سلسلة خطابات متداخلة عن أناسها، ودينها، وحركاتها السياسية، وبُناها الاجتماعية، وصراعاتها المستقطبة، ولحظاتها الحاسمة. ثانيا، تخيلوا الشرق الأوسط وفقا لما أملوا أن يصبح عليه نتيجة للتدخل الخارجى فى المنطقة. أو بتعبير آخر، اعتقد هؤلاء الأفراد بإمكانية تغير الشرق الأوسط نتيجة لزيادة تعمق تدخل البلدان الأخرى - والولايات المتحدة بخاصة - فى شئونه الإقليمية. من ثم، غدت الأساليب التى بها تخيلوا الشرق الأوسط فى أيامه الماضية أو الحالية هى التى تبرر، أو تفسر جزئياً، السياسات التى تهدف إلى خلق شرق أوسط، متخيَّل فى مستقبل الأيام.

يتطلب تبنى هذه الأطروحات منى تنظيم الكتاب حول تيمات وقضايا محددة، بدلا من تنظيمه كسرد تقليدى يتبع التسلسل التاريخى. من ثم، أجدنى أقلص التركيز على الحرب الباردة التى تهيمن بعامة على غالبية الأعمال الأكاديمية والبحثية التى تتناول تاريخ علاقات الولايات المتحدة بالشرق الأوسط، هذا على الرغم من أن الحرب الباردة تظل حاسمة فى التحليل الذى أتبناه، لكنها مجرد عامل واحد من بين العوامل الكثيرة المؤثرة كما يتضح من تفحص التصورات التى مازالت قائمة، والمتبدّلة فى آن، التصورات عن المنطقة التى سبقت هذا الصراع، وتواجدت معه، وبقيت بعده.يبحث الفصل الأول تطور الخبرة وإنتاج المعرفة حول الشرق التى كان دافعها وبتزايد مصالح الولايات المتحدة الاقتصادية والأمنية المتوسعة فى المنطقة. يتحول الفصل الثانى إلى مسألة الدين، العامل الأكثر وضوحا الذى يحدد الفرق بين الولايات المتحدة وغالبية مناطق الشرق الأوسط، حيث نقوم بتحليل المدركات المختلفة عن الإسلام، وأثره فى الشرق الأوسط ذاته، وتضمينات ذلك بالنسبة لتدخل الولايات المتحدة فى المنطقة ومصالحها هناك.يتفحص الفصل الثالث تأويلات الحركات القومية فى أنحاء المنطقة وردود الفعل عليها، ويتعاطى

الفصل الرابع مباشرة مع الدافع العلمانى التحديثى الذى أرى أنه ظلّ، ومنذ وقت طويل وحتى الآن، يحفز تدخل الولايات المتحدة فى الشرق الأوسط. وفى النهاية، ويعالج الفصل الخامس القضية الأساسية – أى الصراع العربى الإسرائيلى الفلسطينى – الذى تسبب فى أكبر قدر من الاستياء لدى المشاركين فى العملية المعقدة لتخيل الشرق الأوسط وكشَفَ عن التوترات العميقة بينهم.

ونتيجة لترتيب الكتاب وفقا للتيمات، فإننا لا نجده مجرد نظرة عامة شاملة على تاريخ علاقات الولايات المتحدة بالشرق الأوسط، والتى يوجد منها بالفعل العديد من النماذج الجيدة، كما أنها ليست دراسة حالة تفصيلية متعمقة لعلاقات الولايات المتحدة ببلد بعينه فى المنطقة. بدلا من ذلك، فإن الكتاب هو محاولة للإلمام بالأساليب التى فهم بها المراقبون المهنيون، والمعلقون، وصناع السياسة المنطقة بمجملها. ومما لا ريب فيه، فقد تعاطى هؤلاء الأفراد مع بلدان بعينها فى تعليقاتهم أو سياساتهم لكنهم كثيرا ما فعلوا ذلك من خلال مُدرك أوسع للمنطقة ككل كما يوضح المثالان التاليان. أولا، فى إبريل عام ١٩٥١، ذكر «تقرير الاستخبارات القومية» مايلى: «من منظور مصالح الولايات المتحدة الأمنية، لابد أن نعتبر الشرق الأدنى كيانا واحدا. سيتطلب الدفاع عن المصالح الاستراتيجية فى المنطقة (المنشآت النفطية، الاتصالات، المرافق الجوية الاستراتيجية) استخدام القواعد العسكرية، وحرية الحركة للقوات الدفاعية فى أنحاء الجزء الأكبر من المنطقة». من ثم، فإنه لايمكن فصل السياسة تجاه بلد بعينه عن السياق الإقليمى الأوسع. ثانيا، وكما يوضح الفصل الثانى، ميّز المتخصصون الإسلام بأنه دين «شمولى» يُملى على معتنقيه جميعهم أساليب تفكيرهم وأفعالهم. ومن الواضح أن هذا التقييم أضمر إشكاليات كبرى، كما أننا لا نتبناه هنا، لكنه يكشف بالفعل المدى الذى به نظر الأمريكيون والمراقبون الآخرون آنذاك إلى الشرق الأوسط بصفته كيانا واحدا. من ثم،يصبح من الأهمية بمكان أن نفهم الكيفية التى بها وُجِدت مثل هذه القراءة،

وتضميناتها بالنسبة لعلاقات الولايات المتحدة ببلدان بعينها، وأيضا بالمنطقة الأوسع.

ووفقا للتنظيم الذى اتبعناه فى هذا الكتاب، يصبح من الممكن قراءة كل فصل منه على حدة كوحدة مستقلة، على الرغم من وجود خيوط عديدة تربط الفصول ببعضها، وتجعل منها تفحصا متماسكا متسقا للأسلوب الذى تخيل به المراقبون المهنيون المنطقة. يأتى فى البداية اهتمامى المنهجى العريض بضم المقاربات التى تركز على مسائل الأمن القومى، والدبلوماسية، والاقتصاد مع التأويلات التى تؤكد على السياقات الثقافية والأيديولوجية أو الفكرية ومعها اللاعبون الذين لاينتمون إلى الدولة والذين أثّروا فى مسار علاقات الولايات المتحدة الخارجية. كثيرا ما ينظر الدارسون إلى تلك المقاربات على أنها حصرية بأسلوب متبادل بدلا من النظر إليها على أنها تدعم بعضها، هذا على الرغم من أن الاستنباط الأكثر جدوى هو ذلك الذى يدرك أن حماية شئون الأمن القومى أو المصالح الاقتصادية، أو السعى إلى ذلك، كثيرا ما شكل دوافع صناع السياسة، على حين أن السياقات الثقافية والأيديولوجية أو الفكرية هى التى أثرت فى الأسلوب الذى تحددت به تلك المصالح، وطريقة التعبير عنها والسعى إليها.

ليس ثمة شك فى أنه ينبغى على الباحثين الجمع بين النهجين فيما هم يجهدون من أجل الإلمام بتاريخ علاقات الولايات المتحدة بالشرق الأوسط. ومن الواضح أن بؤرة تركيز صناع السياسة الأمريكيين كانت هى المصالح الاقتصادية، وبخاصة النفط منذ عشرينيات القرن العشرين، وشئون الأمن القومى وبخاصة أثناء الحرب الباردة مع الاتحاد السوفييتى وبعدها. بيد أنه كان للثقافة والأفكار أهمية مركزية فى كيفية فهم صناع السياسة وعامة الأمريكيين القضايا الاقتصادية والأمنية معا. سرعان ما غدا النفط العامل الأكثر حسما للجيوش الميكنة بتزايد والمتقدمة تكنولوجيا وأيضاً للثقافة الاستهلاكية الجديدة التى أخذت فى التوسع سريعا فى

أنحاء الولايات المتحدة أولا، ثم أوربا، وفى النهاية فى أجزاء العالم المختلفة طوال القرن العشرين. من ثم، غدت إتاحة بترول الشرق الأوسط للولايات المتحدة وحلفائها مسألة حاسمة من الناحية الاقتصادية الاستهلاكية والعسكرية من أجل الحفاظ على ما أسماه الباحثون وصناع السياسة «أسلوب الحياة الأمريكى» فى الداخل والخارج. فهم الأمريكيون صراع الحرب الباردة مع الاتحاد السوفييتى بأساليب مماثلة بصفتها صراعا على بقاء نظام الولايات المتحدة الثقافى والاقتصادى والسياسى فى الداخل، وأيضا بصفته رؤية ملازمة كلية لخلاص العالم. من ثم، وفيما عمل صناع السياسة الأمريكيون والأكاديميون والصحفيون ورجال الأعمال الذين دعموهم، على تحديد مصالح الأمن القومى فى الشرق الأوسط وحمايتها، فقد أُجبِروا على محاولة فهم المنطقة نفسها. وبدوره، أتى بهم ذلك الجهد وجها لوجه مع أفكارهم عن أناس الشرق الأوسط، وديانانه، وبُناه الاجتماعية، والحركات السياسية، وغيرها من معالمه. كاد يكون من المستحيل رسم أية سياسات من دون أخذ هذه المسائل فى الاعتبار.

أما الخيط الثانى الذى يمتد فى أجزاء تلك الفصول، والمرتبط عن كثب بالخيط الأول، فهو بؤرة التركيز على الطبيعة المتغيرة للخبرة والمرجعية فى الولايات المتحدة بخصوص الشرق الأوسط تحديدا والعلاقات الخارجية بشكل أوسع. طوال معظم سنوات القرن التاسع عشر، شكّل المبشرون والسياح، وكتاب الأسفار غالبية «الخبراء» فى شئون الشرق الأوسط. ثم توسعت هذه المجموعات، فى السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر، لتتضمن الأكاديميين المهتمين بالشرق الأدنى القديم وبالدراسات الإنجيلية. ثم تنامت المجموعة مرة أخرى فى بدايات القرن العشرين بحيث تضمنت رجال الأعمال الذين لهم أنشطة تجارية مع الشرق الأوسط والصناعات النفطية الإقليمية الوليدة، وأيضا مجموعة بازغة من مفكرى السياسة والاستراتيجية ومعهم بعض الأكاديميين والمعلقين السياسيين الأوربيين. وبالرغم

من ذلك، فلم يكن هناك وقت اندلاع الحرب العالمية الثانية سوى عدد قليل من الأشخاص فى الولايات المتحدة الذين يمكن وصفهم بأنهم مرجعيات فى شئون الشرق الأوسط الحديث. بدأت هذه الأوضاع فى التغيير أثناء الحرب التى أتت بآخرين من تخصصات مختلفة للتركيز على العلاقات الأمريكية شرق الأوسطية المعاصرة. ثم أتاح صعود الحرب الباردة فى نهاية أربعينيات القرن العشرين الذرائع السياسية الضرورية لكسب تمويلات كبيرة لقيام دراسات شرق أوسطية حديثة كمبحث علمى متمايز. ومنذ آنذاك وحتى الآن مضى عدد من يزعمون الخبرة فى شئون الشرق الأوسط فى التنامى.

أزعم أن الأمر انتهى بأن شكّل هؤلاء الأفراد شبكة غير رسمية تميزها ملامح أساسية معينة، أهمها هو أن جميع أعضائها كانوا يتشاركون فى اهتمام مهنى بالشرق الأوسط ذى توجهات نحو السياسة، وأنهم سعوا لنقل حس بدور المنطقة فى التصور الأوسع للسياسات الدولية. وبتعبير مختلف، فقد تقاسم هؤلاء هدفا مشتركا للإسهام فى السياسات والمناقشات العامة حول الشرق الأوسط وعلاقته بالولايات المتحدة. ميزوا أنفسهم بصفتهم وبأسلوب ما، محللين مهنيين، ومعلقين، وخبراء، ومراقبين، ومتخصصين فى الأمور التى تتعلق بالشرق الأوسط، وبأنهم يتقاضون أجرا ليصبحوا هكذا. أيضا، كان ثمة مستوى معين للتناص البيْنى فى إطار تلك الشبكة غير الرسمية، أى أن كثيرا من أعضائها كانوا ملمين بعمل نظرائهم وكانوا يتصلون فيما بينهم إما بأسلوب مباشر أو غير مباشر فى اللقاءات المهنية، ومن خلال الخطابات، أو قراءة أعمال بعضهم أو اجتزائها أو الاستجابة لها. بل إنه كانت ثمة تعبيرات مؤسسية عن وجود تلك الشبكة غير الرسمية من خلال الاجتماعات التى تعقدها منظمات مثل مجلس العلاقات الخارجية أو معهد دراسات الشرق الأوسط. وأخيرا، فعلى حين أن غالبية المشاركين كانوا من الولايات المتحدة وتلقوا تدريباتهم فى مؤسساتها الأكاديمية أو الحكومية أو

مؤسسات البيرنس، فقد كانت الشبكة بشكل ما عبر/ دولية فى مداها. كانت تعتمد بخاصة على الخبراء الأوربيين – من أمثال فالنتين تشيرول فى السنوات المحيطة بالحرب العالمية الأولى، وهاميلتون إيه. آر. جيب منذ ثلاثينيات القرن العشرين وحتى نهاية خمسينياته، وبرنارد لويس منذ الستينيات وحتى وقتنا هذا، بين آخرين كثيرين – لكى يعملوا كمرجعيات فى حد ذاتهم لكن أيضا كى يُدرّبوا الأمريكيين. لكن هذه الشبكة عبر/ الدولية غير الرسمية اجتذبت أفرادا من الشرق الأوسط ذاته، وبخاصة من لبنان، إما كمعلمين لخبراء المستقبل، أو كمشاركين فى الحوارات بإمكانهم إضفاء المصداقية على التأكيدات المتنوعة بشأن المنطقة وشعوبها.

تتشارك الشبكة التى نتفحصها هنا فى بعض الملامح مع الشبكات المعترف بها الأخرى، لكنها أيضا بأساليب مهمة تمثل قطيعة معها. فى كتابها عن الجماعات الماسونية، تُعرّف المؤرخة جسيكا هارلاند – چايكوبس الشبكة بأنها «نظام مترابط، وبتحديد أكثر، فهى مجموعة من الأشخاص على علاقة متبادلة يتشاركون فى المصالح والاهتمامات ويتفاعلون من أجل المساعدة المتبادلة. وفيما تعمل بعض الشبكات على نطاق محلى فقط، فثمة أخريات تعمل تزامنيا على مستويات متنوعة: محلية، قومية، إقليمية، بل وحتى كوكبية». وعلى الرغم من أن الماسونيين يشكلون شبكة رسمية وواسعة النطاق بأكثر مما شكله متخصصو الشرق الأوسط موضوع المناقشة، لكن من الممكن أن تطبّق عليهم فكرة أنهم كانوا مترابطين ويتشاركون فى مصالح واهتمامات، وأنهم كانوا يتفاعلون معاً من أجل العمل على تحقيق غاية متفق عليها تبادليا (وإن لم يكن من أجل المساعدة المتبادلة). لكن يجدر القول أيضا أن المتخصصين فى الشرق الأوسط هؤلاء لم يكونوا وثيقى الترابط مثل «الڤلاكنة» الذين وصفهم مؤخرا الصحفى توماس چيمس مان فى دراسة له عن مجموعة العاملين بالسياسة الخارجية من الحزب الجمهورى والذين بلغوا سن الرشد

السياسى فى السبعينيات والثمانينيات ثم عادوا إلى السلطة مع إدارة جورج دبليو بوش. كانت تلك المجموعة، والذين أسموا أنفسهم «الفلانكة» على اسم إله النار وصنع المعادن وتشكيلها الرومانى، كانوا مجموعة مُحْكمة بدرجة استثنائية من المسئولين ذوى الفكر المتماثل والذين كدّوا واجتهدوا من أجل الهيمنة على سياسة الولايات المتحدة الخارجية وتشكيلها بأسلوب لا يمكن الفكاك منه، وبخاصة فى أعقاب إدارة كلينتون. أما المتخصصون فى الشرق الأوسط الذين نناقشهم فالأحرى مقارنتهم بالمتخصصين فى الشئون السوفييتية الذين تفحصهم دايفيد إنجرمان ورأى أنهم كانوا مجموعة متنوعة فكرياً وسياسياً من «الأساتذة/ المستشارين» الذين جمع بينهم اهتمامهم المشترك فى الإسهام فى سياسات الحرب الباردة للولايات المتحدة فيما شاركوا فى خلق مجال كامل من الدراسة الأكاديمية وأعادوا تشكيله مرارا وتكرارا. ومثل متخصصى الشرق الأوسط موضع دراستى، ساعد متخصصو الاتحاد السوفييتى الذين درسهم إنجرمان على تعيين حدود الجدل والنقاش المتعلق بالاتحاد السوفييتى لعشرات السنين.

وفيما أذهب إلى أن شبكة عبر / قومية من المحللين والمعلقين والخبراء والمراقبين والمتخصصين ظهرت آنذاك، فإننى على وعى تام بحدود تلك الشبكة وحدود ما أطرحه بشأنها. لم يكن ثمة خطوط إرشادية واضحة يتقرر وفقها عضوية تلك الشبكة، كما أن الأفراد الذين أكتب عنهم لم يتحدثوا أبدا عن أنفسهم بصراحة بصفتهم أعضاء فى شبكة، ومن ثم،يظل هناك بعض الأشخاص فى هذا الكتاب يقاومون وضعهم بسهولة ضمن تصنيفات بعينها. وعلى الرغم من ذلك، فإننى أجد فكرة وجود شبكة عبر/ قومية غير رسمية من المتخصصين المهنيين مفهوما مُجديا أتفحص من خلاله كيف تخيل الأمريكيون الشرق الأوسط. أيضا، ولكى أكون واضحا، فإننى باستخدامى مفهوم الشبكة عبر/ القومية لا أوحى بأى حال أن جميع هؤلاء الأشخاص كانوا متفقين على جميع القضايا الكبرى وقتئذ أو أنهم

مارسوا سطوة مُلزِمة لدى اتخاذ قرارات سياسية محددة. ففى واقع الأمر فقد ولّدت قضايا عديدة جدلا لا يستهان به بين أعضاء الشبكة. بل إن التوافق المبدئى على قضية بعينها لم يكن يؤدى دائما إلى الخروج بوصفة سياسية واحدة. لذا نجد أن الأجدى هو أن ننظر إلى الخبرة التى كان يزعمها هؤلاء الأشخاص والتأويلات التى كانوا يطرحونها على أنها ساعدت على إرساء حدودٍ للجدل والنقاش حول الشئون الإقليمية ودور الولايات المتحدة فيها.

يسمح تفحص هذه الشبكة عبر / القومية غير الرسمية من المتخصصين فى الشرق الأوسط الذين عكفوا على تفسير المنطقة للجماهير الأمريكية، يسمح لنا بالاعتماد على مفهوم دايڤيد إنجرمان عن «المعرفة من أجل القوة الكوكبية» و«المعرفة كقوة كوكبية». فى ظل المصنف الأول، أى المعرفة من أجل القوة الكوكبية، عمل الأكاديميون والمتخصصون الآخرون على قضايا تتعلق بالشرق الأوسط بهدف محدد واضح، ألا وهو مساعدة صناع السياسات. وفى نفس الوقت، نظر كثير من الأشخاص وبخاصة فى المجال الأكاديمى أو الإعلامى لأنفسهم على أنهم يلعبون دورا حاسما فى تثقيف المجتمع العريض عن المنطقة، ومكانها فى حلبة السياسة الدولية، ودور الولايات المتحدة هناك، واعتبروا أنهم كانوا بهذا يشجعون اكتساب المعرفة بالقوة الكوكبية بصفتها مسئولية جوهرية لجميع الأمريكيين. وأخيرا، اعتمد كثير من المتخصصين بدرجة كبيرة على أساليب جديدة زُعِم أنها محايدة أو موضوعية لتحديد خصائص معينة للمنطقة وتصنيفها وقياسها. وفّر قياس معدلات الإلمام بالكتابة والقراءة، ومعدلات الفقر، وإنتاج الطعام، والمردودات الاقتصادية بين أشياء أخرى، وفّر وسيلة لتصنيف البلدان، وأنظمة الحكم، والنظم السياسية، بل وحتى الشعوب، وإمكانية استخدام تلك القياسات لوضعها ضمن تراتبية دولية أوسع للدول والشعوب.

تؤدى بنا هذه النقطة إلى خيط ثالث يتخلل الكتاب: المحاولات المتسقة لأعضاء

تلك الشبكة من الأكاديميين ورجال الأعمال والصحفيين وصناع السياسة لتخيل الشرق الأوسط وقد تم تغييره أو تحديثه. كان دافع إحداث التغيير هذا هو تقاطع رؤيتين قويتين أكثر اتساعا للولايات المتحدة ودورها الكوني ومشروعها في العالم. أشار آندرز ستفانسون لهذا المشروع على أنه «إدماج فريد لأيديولوچيا إلهية وأخرى جمهورية حدث بعد الثورة [الأمريكية] مزجٌ دينامي للمفاهيم المقدسة والدنيوية [العلمانية]». كان المفهوم المقدس يحيل إلى الاعتقاد بأن الولايات المتحدة مكان متميز «اصطفاه الرب لتحقيق أهداف إلهية مقدسة». أما الدنيوي أو العلماني، فكان يستند إلى فكرة أن الولايات المتحدة هي تجربة فريدة في الفضائل الجمهورية، والحرية والتقدم المنهجي، ومن ثم، فهي «مكان يُعرض فيه نظام عالمي جديد» بإمكانه أن يفيد «البشرية جمعاء». ومنذ بدايات القرن التاسع عشر وإلى الآن، ظل هذا الحس بالرسالة المقدسة والمهمة العلمانية يشير إلى أن للأمريكيين دورا فريدا عليهم تأديته في الشرق الأوسط. كان المبشرون الأمريكيون في القرن التاسع عشر يرون أن المؤسسات التعليمية والخيرية التي أقاموها في أنحاء المنطقة يُحتمل لها أن تعمل على تحول المسلمين والأهالي المسيحيين عن دينهم؛ بل أيضا على أنها تحققٌ للنبوءة الإنجيلية الأوسع القائلة بظهور «أورشليم جديدة» تعمل على خلاص «أورشليم القديمة». وطوال النصف الأول من القرن العشرين فهمت شبكة المتخصصين البازغة إمكانية التحول السياسي كما تجلت في صعود القوى القومية العلمانية على أنها، جزئيا، من ثمار تجربة المبشرين الأمريكيين، وأيضا كرد فعل على الكلونيالية الأوربية وما تخيله الأمريكيون على أنه استبداد إسلامي. وفي نفس الوقت، غدت رواية موازية عن التحول الاجتماعي/ الاقتصادي متضمَّنة في مشاركة شركات الولايات المتحدة في تطوير موارد الشرق الأوسط النفطية وفي جهود الحكومة الأمريكية في المنطقة. عملت المؤسسات من أمثال أرامكو، دونما كلل، للدعاية نفسها على أنها تأتي بالتقدم والتنمية إلى شعوب المنطقة هذا على الرغم من

أن الوقائع على الأرض كانت تشير إلى أن القصة أكثر تعقيداً بكثير. أُدمجت هاتان الروايتان التوءم مع أشكال جديدة للمعرفة الاجتماعية العلمية بحلول أواخر الخمسينيات وبدايات الستينيات من أجل دعم تطبيق حكومة الولايات المتحدة سياسات تهدف إلى تحديث الشرق الأوسط. وحينما أدت الفرضيات المعيبة التى قامت عليها تلك السياسات إلى فشلها، استند المتخصصون إلى الأساليب الراسخة لتخيل الشرق الأوسط كى يبرهنوا على أن المنطقة غير قادرة على تغيير نفسها.

استند تخيل المهمة الفريدة المناطة بالولايات المتحدة لتغيير الشرق الأوسط على تخيلات مترابطة عن كتب بتحليلات مقدسة وعلمانية للمنطقة على نفس الدرجة من القوة. فمنذ بدايات القرن التاسع عشر، على الأقل، ظل الأمريكيون يتخيلون الشرق إما على أنه «مهد الحضارات» أو «مكان مولد ديانات عظمى ثلاث»، أو على أنه ببساطة هو «الأرض المقدسة». وحينما تزايد اهتمام الولايات المتحدة وتدخلها فى المنطقة فى القرن العشرين، أثرت المخاوف المقدسة من دور الإسلام كقوة «شمولية» فى جهود الولايات المتحدة لدعم ظهور الحركات القومية العلمانية فى أنحاء المنطقة؛ لكن حينما لم تتطابق تلك الحركات مع رغبات الولايات المتحدة، شجع أعضاء الشبكة وصناع السياسات النماذج العلمانية للتحول الاجتماعى/ الاقتصادى، أو التحديث. وحينما فشلت هذه النماذج تم تفسير هذا الفشل من خلال عدسات المقدس والعلمانى وثيقة الترابط. وتبدت المشكلة الأكثر إرباكا وإيلاما – الصراع العربى / الإسرائيلى/ الفلسطينى – للمراقبين على أنها نتاج تقاطع المخاوف الدينية المقدسة والقومية العلمانية فى الأوساط العربية، واليهودية معا.

يتطلب بحث تلك التخيلات عن المهمة المقدسة والواجب العلمانى لخلق شرق أوسط «حديث» من المرء تفحص ما كان يعنيه المصطلح (الحديث) فى فكر المتخصصين. فمنذ الحرب العالمية الأولى صعودا، أصبح المصطلح بتزايد يعنى دولة قومية علمانية موثوقة تتبع سياسات لإضفاء الصبغة الرسمية على النظم

القانونية والدستورية التى تحمى حقوق الأفراد، وتشجع النمو الاقتصادى ذا التوجهات الاستهلاكية، وتوفر الخدمات الاجتماعية وبخاصة فى مجالات التعليم والرعاية الصحية، الأمر الذى من شأنه تحسين الحياة اليومية لمواطنى الدولة. وبالنسبة لمراقبين عديدين كانت تركيا كمال أتاتورك هى نموذج البلد الحديث، حيث أمل أتاتورك فى إضعاف الإسلام ومعه ارتباط الجماهير بالماضى العثمانى من خلال إعلانه جمهورية تركية مستقلة، وإلغاء الخلافة، وتغيير الحروف الأبجدية بين أشياء أخرى. وفى نهايات الأربعينيات وبدايات الخمسينيات اعتبر المتخصصون من أفراد الشبكة غير الرسمية أتاتورك نموذجا للقائد الذى أملوا أن يروه يصعد إلى السلطة فى دول المنطقة.

بيد أنه، كانت الحداثة فى الشرق الأوسط، بين حين وآخر، تحتل مكانة أدنى من إقامة تحالفات عسكرية وسياسية موثوقة تساعد الولايات المتحدة على حماية مصالح أمنها القومى. تبدت التوترات بين هاتين الرؤيتين للشرق الأوسط فى العلاقات الناشئة بين الولايات المتحدة ومصر من جهة وبين الولايات المتحدة والسعودية من جهة أخرى. فى الخمسينيات والستينيات، تخلت الولايات المتحدة عن علاقتها مع مصر التى كانت تحاول تحقيق أوجه كثيرة من الأجندة الحداثية التى وُصفتْ سابقاً، والتى لم تكن على استعداد للخضوع للرغبات السياسية والعسكرية الأمريكية. وبالتقابل، رسخت علاقاتها الاقتصادية والعسكرية والسياسية بالمملكة العربية السعودية التى كانت، وبلا ريب، معادية للحداثة (وفقا للتعريف السابق) لكنها كانت حليفا إقليميا موثوقا تمتلك احتياطات نفط هائلة، فيما استمر الأمريكيون ممن هم على علاقة بأرامكو يقومون بالدعاية للشركة على أنها تقوم بتحديث المملكة الصحراوية.

يعمل التركيز على الرؤى التحويلية للشرق الأوسط، ونقيضاتها المضمرة – القلق من «التخلف» أو «الموروثات» فى المنطقة – على إلقاء الضوء على الخط

الرابع الذى يتخلل فصول الكتاب: محاولتى للإسهام فى ما أسمته ملانى ماكاليستر الفهم «المابعد كلونيالى» للعلاقة متعددة الأوجه بين الولايات المتحدة والشرق. تُحيل ماكاليستر إلى كتاب [الراحل] إدوارد سعيد «الاستشراق» الذى رأى أن الأوربيين الغربيين وبعدهم الأمريكيون استغلوا سلسلة من الخطابات الماهوية essentializing [تقلص الظاهرة إلى جوهر أو ماهية] من أجل ممارسة الهيمنة الثقافية والمادية على «المشرق The Orient». ذهب سعيد إلى أن الخطاب الاستشراقى استشهادى، أو إحالى إسنادى، حيث أسست المرجعيات الأولى شبكة إحالات إلى بعضها تدعم كل منها الأخرى. عمل هذا الخطاب على تأنيث الشرق الأوسط فى فكر أوربا الغربية والأمريكيين وذلك من خلال تمييز شعوب المنطقة بأنهم ضعفاء، عاطفيون أو لاعقلانيون. أدى هذا الخطاب إلى إرساء علاقة فكرية بين الشرق الأوسط والغرب مؤسسة على ثنائيات – قوى وضعيف، مؤنث ومذكر، متخلف أو تقليدى وحديث.يتردد مؤرخو علاقات الولايات المتحدة الخارجية فى قبول أطروحة سعيد ونهجه لأسباب عديدة. وبعامة، فهم يبدون عدم ارتياحهم للأسلوب الذى عزل به سعيد مصادره عن سياقاتها التاريخية المميزة، ثم طرح مزاعمه «الماهوية» الخاصة عن طبيعة علاقات أوربا الغربية والولايات المتحدة بالشرق الأوسط. علاوة على ذلك،يبذل كثير من الباحثين فى علاقات الولايات المتحدة الخارجية جهدهم لتبنى مقاربات وأطروحات لايمكنها إثبات وجود رابطة سببية مُميَّزة بين تمثيلات ثقافية بعينها أو مدركات شعبية محددة وبين السياسات الفعلية [التى تنتهجها أمريكا].

أحد أساليب التوصل إلى تأويل ما بعد كلونيالى هو التركيز على أفراد أو مجموعات من الذين دأبوا على التفكير فى الشرق الأوسط على أساس يومى وكيف تجسد هذا التفكير فى توجهات الولايات المتحدة الدولية. لن يؤدى نبش الفرضيات وإخراجها من مكامنها، ومعها الأطر التأويلية المرشدة، والروايات عن الشرق

الأوسط ومكانه فى العالم، لن يؤدى بنا بالضرورة إلى الإلمام بالسياسات المحددة، لكنه يساعدنا بالتأكيد على استرداد المصادر لسياقاتها التاريخية الصحيحة والإقرار بدوافعها السياسية الصريحة، هذا علاوة على أنه يساعدنا على فهم المناخات الفكرية التى جرت فيها الجدالات حول طبيعة علاقات الولايات المتحدة والشرق الأوسط وتوجهاتها.

من ثم،يتيح لنا تفحص أفكار هؤلاء الذين شُغلوا بالشرق الأوسط على أساس يومى تحدى أطروحات إدوارد سعيد والدفع بها قُدماً فى آن. تشير بؤرة تركيزى على شخصيات شبكة غير رسمية من مراقبى الشرق الأوسط المهنيين إلى وجود سمة إسنادية استشهادية لتخيلات الأمريكيين للمنطقة. وعلى حين أن أفراد هذه الشبكة لم يتفقوا دائما على بعض القضايا المحددة، فإنهم طوروا أساليب تدعم بعضها تبادليا لفهم المنطقة والتى عملت فى مجموعها على إرساء حدود الجدل الخاص بالعلاقات الأمريكية/ شرق الأوسطية. لكن تلك التخيلات استخدمت ما هو أكثر بكثير من الخطاب التأنيثى؛ تكشف الصفحات التالية عن نزوع لشخصنة مدركات معينة للشرق الأوسط، ولكبسلة آمال وأحلام ومخاوف وغضب الأمريكيين وغير ذلك من عواطفهم وأفكارهم بالنسبة للحركات والتوسعات الأوسع فى المنطقة، كبسلتها جميعها فى شعب بعينه. كان تأنيث الأفراد من أمثال محمد مصدق واحدا من بين عديد من الطرق السلبية الاستطرادية التى استنفدتها تلك العملية إلى نهايتها، لكن كان بإمكانها أيضا اتباع الطريق النقيض. حدث هذا حينما جعل المحللون من كمال أتاتورك نموذجا للزعيم العلمانى التحديثى الذى أملوا أن يحاكيه الآخرون. وفى كلتا الحالتين فإن إضفاء تلك السمات على أفراد رئيسيين وشخصنتها كان جزءا من جهد أوسع لإسباغ الشرعية أو عدم الشرعية على أنظمة المنطقة. أيضا، توسع التركيز على الأشخاص ليتجاوز شخصيات معينة ويشمل شعوبا بأكملها. كانت ثمة جهود عديدة لتثقيف الأمريكيين بشأن سمات شخصية

مزعومة متأصلة فى «العرب» أو «المسلمين» أو «المحمديين Mohammedans تترجم حرفيا «عبدة محمد». وأخيرا، وفيما كانت تلك التشخيصات الثنائية (قوى/ ضعيف، مؤنث/ مذكر.. إلخ) أوجهاً مهمة للكيفية التى تصور بها المتخصصون الشرق الأوسط، كانت العملية فى مجملها أكثر تعقيداً بكثير. مثلا، يغفل التركيز على الثنائيات وحدها إمكانية التحول الدينامى الذى كان جزءا جوهريا من كيفية تخيل أعضاء الشبكة لتدخل الولايات المتحدة فى الشرق الأوسط.

ومعاً، تكشف تلك الخيوط التأويلية التى أوردنا تفاصيلها أعلاه الخطوط العريضة، على أقل تقدير، لما يسميه تيموثى ميتشل فى كتابه عن استعمار البريطانيين لمصر، «إطار للمعنى» آخذ فى التطور.. هيكل فكرى صُمّم بحيث يجعل أشياء معقدة ومتباينة منظمة ومنهجية وقابلة للفهم داخل سياق محدد». أمد الإطار المتخصصين من الأكاديميين، ورجال الأعمال، والإعلاميين، ومسئولى الحكومة بأسلوب لجعل الشرق الأوسط مفهوما، واستطرادا، لتعيين موقع المنطقة وجميع القوى النشطة هناك داخل إطار سياق دولى أوسع كانت فيه الولايات المتحدة فى سبيلها إلى البزوغ كبلد العالم الأقوى الذى كان له مصالح على قدر كبير من الأهمية فى تلك المنطقة. ومما لا ريب فيه، فإن مكونات هذا الإطار المختلفة كانت تكمّل بعضها وتناقض بعضها فى آن. أحيانا، كان الأسلوب الذى أدرك به أمريكيون كثيرون الحرب الباردة لبلدهم ومصالح أمنها القومى فى الشرق الأوسط التى ترتكز على النفط، كان يتناقض مع مدركات هؤلاء الأفراد عن الصراع العربى/ الإسرائيلى/ الفلسطينى وعن دور الدين، أو المعنى الأوسع للمهمة المقدسة والعلمانية التى مثّلت الدافع الحيوى لتدخل الولايات المتحدة فى المنطقة. وبالمثل، فكثيرا ما كانت محاولات فهم الحركات القومية والاستجابة لها تسير فى اتجاه معاكس للجهود المماثلة التى تتعلق بدور الدين. ليست هذه هى التوترات الوحيدة المتعضونة فى إطار المعنى الأوسع الذى أناقشه فى الصفحات التالية، لكنها تفيدنا فى توضيح مدى التعقيد الذى كان عليه هذا الإطار.

ليس لدىّ أية نية، من خلال تفسير إطار المعنى هذا، للترويج لتنويعة جد معيبة من المدركات والتنميطات عن الشرق الأوسط وشعوبه أو العمل على استمرارها. يتراوح المدى الواسع لهذه الأفكار الخاطئة بين تجاهل التنوع الدينى عبر العقائد الدينية المختلفة وأيضا بين طوائف الدين الواحد المختلفة، وبين العنصرية الفاضحة وإضفاء الخصائص التى تحط من شأن شعوب المنطقة. الأحرى أن هدفى هو أولا محاولة إعادة خلق الشرق الأوسط الذى تخيل أفراد شبكة غير رسمية من المتخصصين ذوى التوجهات السياسية الذين ينتمون إلى مهن مختلفة تخيلوا أنهم يعرفونه. وثانيا أحاول أن أفهم. كيف أصبحت تلك التخيلات عوامل مؤثرة فى النقاشات حول دور الولايات المتحدة فى المنطقة وفى العالم الأوسع. من ثم، فإن كثيرا من الذى سيلى فى هذا الكتاب، بما فى ذلك المجتزآت التى تشير إلى «المحمديين Mohammedans».. أو غير ذلك من المصطلحات المسيئة التى تنم عن تبلد الأحاسيس،يتعلق بالأفراد الذين كانوا يقومون بالتخيل، وليس بموضوع تخيلاتهم، وذلك لأنه فقط بفهمنا أولا لأصول مثل إطار المعنى هذا يصبح بإمكاننا تجاوزه.

وعلى حين أننى لا أستخدم مصادر باللغة العربية، فإننى لا أعتقد أن الأسئلة التى أهتم بها، والتى يسعى هذا الكتاب إلى الإجابة عنها تتطلب، فى معظمها، هذه المصادر. ثمة مفاتيح كثيرة لفهم تاريخ علاقات الولايات المتحدة بالشرق الأوسط، ونستطيع العثور على أحدها من خلال تفحص كيف فهم أفراد تلك الشبكة غير الرسمية فى الولايات المتحدة والمرتبطون بهم من أوربا والشرق الأوسط، فهموا المنطقة، وكيف نقلوا أفكارهم هذه للجماهير الأمريكية. تظهر مفاتيح أخرى من خلال الدراسات التى تستند إلى حد كبير، أو حصريا، على المصادر باللغة العربية. وفى الواقع، فإن هذه الدراسات هى نقيض تام لما أضطلع به فى هذا الكتاب إذ إنها تستند إلى المصادر العربية لتفحص كيفية تخيل شعوب الشرق الأوسط

للولايات المتحدة. وفى الواقع، فإن تاريخ علاقات الولايات المتحدة والشرق الأوسط معقد بدرجة لا تكاد تصدّق، ويتطلب فهم هذا التاريخ دراسات ومقاربات متنوعة. وعلى الرغم من ذلك، فإننى بالفعل أستند إلى بعض الدراسات المعاصرة المؤسسة على مصادر باللغة العربية فى لحظات معينة من أجل تصويب بعض الآراء الواردة فى المصادر باللغة الإنجليزية التى استخدمها.

وفيما أننى أستند إلى مدى واسع من الدراسات والأبحاث وأنا أعرض أطروحة كتابى وأفصلها، فقد وفرت لى عدة أعمال رئيسية نماذج للمحاكاة ونقاطاً لانطلاقات جديدة فى أن.يعتبر كتابا دوجلاس ليتل «الاستشراق الأمريكى» وميلانى مكاليستر «لقاءات ملحمية» رائدين فى هذا المجال حيث يركزان على الشرق الأوسط تحديدا .يحلل أول فصول كتاب ليتل كتابات الأسفار فى القرن التاسع عشر، ومنتجات القرن العشرين الثقافية مثل مجلة ناشونال جيوجرافيك وفيلم علاء الدين ويستند إلى تحليله لهذه الأعمال فيما يذهب إليه من أن أفكار الأمريكيين عن الشرق الأوسط لها دور فى صياغة السياسة. ثم بعد ذلك يقوم بعرض ممتاز لتاريخ السياسة ينتظم حول تيمات محددة (النفط، الأمن القومى، الصراع العربى الإسرائيلى.. إلخ)، لكن ولسوء الحظ، لا يركز كثيرا على الأفكار على خلاف ما يوحى به فصله الافتتاحى. وبالمقابل، تقوم مكاليستر بتحليل الأفلام ، والمشاهد والتعليقات الهزلية الكوميدية، والكاريكتيرات السياسية والأدب، ضمن أشياء أخرى لتحلل كيف تأثرت الثقافة الأمريكية بالعلاقات الأمريكية شرق الأوسطية، وكيف عكست تلك الثقافة هذه العلاقة. مرة أخرى، وعلى الرغم من أن كتاب مكاليستر عمل لافت مهم إلا أنه لا يقول سوى أقل القليل عن العلاقات الفعلية بين الولايات المتحدة والشرق الأوسط. يستهدف بحثى مكانا بين الاثنين حيث تؤثر الأفكار والثقافة بأسلوبٍ توجهاته سياسية. وبهذا المعنى، فقد ينظر القراء الذين اطلعوا على الكتابين إليهما بصفتهما نقاط النهاية التفسيرية التى ينطلق منها هذا الكتاب.

وأخيرا، يُعتبر كتابا دايفيد إنجرمان اللذان فازا بعديد من الجوائز، أى «التحديث من الشاطئ الآخر» و«اعرف عدوك» واللذان يتعاطى فيهما المؤلف مع المختصين بالشأن الروسى والسوفييتى فى الولايات المتحدة،يعتبران دراسات حالة كاشفة لتقاطع الخبرة وإنتاج المعرفة والسياسات الدولية. وقد استهلمتُ هذين الكتابين فى عملى هذا، حيث يبلور إنجرمان فهما ثاقبا للسياقات الروسية/ السوفييتية وأيضا للسياقات الأمريكية. علاوة على ذلك،يعتبر الكتابان إسهاما مهما فى موضوع احتراف الخبراء فى الولايات المتحدة. ولكل هذه الأسباب كان الكتابان مرشدين هاديين لى فى عملى هذا.

١- الأسرى، المُبشرون، السياح، والمستشرقون:

علينا، قبل أن نتفحص كيف تخيل متخصصو القرن العشرين الشرق الأوسط، أن نعرف كيف التَقى أسلافهم فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر بالمنطقة وما كانته أفكارهم عنها، ونبحث مدركاتهم وفرضياتهم التى ورّثوها للأجيال المتعاقبة. منذ إقامة الولايات المتحدة وطوال القرن التاسع عشر، كان مرجعية أى شخص عما كان يُعرف آنذاك على أنه جزء من «المشرق» الأكثر اتساعا، أو بالتحديد مرجعيته عن «الشرق الأدنى» تعتمد إلى حد كبير على ما إن كان قد خبره مباشرة أم لا. من ثم، فقد حدثت لقاءات غالبية الأمريكيين بـ«المشرق» من خلال التعليقات التى أمدهم بها مجموعة متنوعة من الأسرى، وأعضاء الإرساليات التبشيرية، والسياح، وكتاب الأسفار. وبحلول الربع الأخير من القرن التاسع عشر، أضفى حقل دراسات الشرق الأدنى القديم أو الدراسات الإنجيلية الذى كان قد استُحدث، المصداقية الأكاديمية على مدركات الأمريكيين عن المنطقة. أتت كل من هذه المجموعات بنهجها الخاص ليتخيل الشرق ومن ثم زعمت لنفسها بعض المرجعية أو الخبرة الخاصة. بيد أنه كان يعلو المعرفة التى أنتجتها كل منها طبقات مما أتى به السابقون، علاوة على أنها كانت تعكس نفس تيماتهم الأساسية.

كان «المشرق» كما تخيله الأمريكيون الأوائل يبدو عقبة فى سبيل المهمات المقدسة والعلمانية والتى يرى أندرز ستفانسون أنها كانت تكمن فى لب مدرك تلك الأمة الجديدة، عن مكانها فى العالم. رأى هؤلاء أن الإسلام وأشكال المسيحية الشرقية تمثل تحديات لتوسع الرؤية المسيحية المقدسة، فيما بدا الإسلام، والنُظم الملكية والاستبداد عوائق فى سبيل انتشار النموذج الجمهورى العلمانى. استند كثير مما كان يمرر فى القرن التاسع عشر على أنه معرفة أمريكية مميزة إلى تقارير انطباعية عن حوادث بعينها عولجت بأسلوب يهدف إلى الإثارة وكانت مؤسسة جوهريا على روايات دينية أعلت من شأن شريحة معينة من البروتستانت الأمريكيين على حساب المسيحيين والمسلمين من سكان المنطقة الأصليين.

كان التعليقات الأمريكية عن المشرق التى لقيت أوسع رواج بين القراء هى بضع سير [للرسول] أو «Mahomet» أو ماهاوند [وهو تحريف لاسم «محمد صلى الله عليه وسلم يرمز به إلى وحش سفر الرؤيا الهائل الذى يخرج من الهاوية ويتوج نفسه على جبل المعبد]، وكتب الرحالة بين حين وآخر، وروايات البحارة ممن تم أسرهم بواسطة القوى شمال الإفريقية فى نهاية القرن الثامن عشر وبدايات القرن التاسع عشر. يكشف تحليل المؤرخ رويرت أليسون لنصوص تلك الأدبيات الكلونيالية والأدبيات الأمريكية المبكرة عن أنها كانت عاملا جوهريا فى تحديد مستقبل الولايات المتحدة.يزعم أليسون أن الخبرات المباشرة مع العالم الإسلامى والقراءات عنه تسببت فى أن يرى الأمريكيون الأوائل «نموذجا لنوع المجتمع السياسى الذى لا يرغبون فى وجوده لديهم». قدمت تلك النصوص بتصويرها مجتمعاً معاديا للنظام الجمهورى يتسم بالاستبداد الدينى وضعف القيادات السياسية والانحلال الجنسى وتاريخ من أسْر الأعداء فى الحروب واستعبادهم، قدمت صورة لنوع الحكم والمجتمع اللذين أراد الأمريكيون تجنب استنساخهما. وبغض النظر عن مدى دقة هذه التخيلات، فقد أضحت جزءا لا يتجزأ فى الخطاب

السياسى وقتئذ بدرجة أنه كان بإمكان الأمريكيين من مختلف الانتماءات السياسية أن يجدوا المبررات فى تلك القصص الشعبية المألوفة لجميع المواقف شديدة الاختلاف التى تبنوها تجاه بلدهم الجديد. وهكذا، استُخدم «المشرق» مجازا نقد من خلاله «الآباء المؤسسون» فى الولايات المتحدة بعضهم ونزعوا الشرعية عن بعضهم. مثلا، دافع جون كوينسى آدمز عن مخاوف والده من أن تؤدى الحرية المفرطة إلى تدهور الأحوال فى البلد ووصولها إلى حال من الأناركية، بل وربما الحكم المستبد، بأن هاجم توماس جفرسون وشوه سمعته لدفاعه عن كتاب توماس پاين «حقوق الإنسان». لقّب آدمز الرئيس جفرسون بـ «النبى العربى» الذى يدعو إلى «إسلام الديموقراطية». وحسب تعبير أليسون، فقد أتاح العالم الإسلامى كما صورته تلك المرجعيات المبكرة «درسا للأمريكيين فى ما لا ينبغى عليهم أن يفعلوه، وفيما ينبغى عليهم أن يتجنبوه و هم يشيّدون دولتهم ويمارسون التجارة أو يكونون أسرهم. ومن أجل أن يزدهر الرجال والنساء ويتقدم المجتمع، لابد من التحكم فى السلطة وضمان الحرية».

وبعد حسم الصراعات مع القوى شمال الإفريقية عام ١٨١٩، سرعان ما رحلت الإرساليات التبشيرية المسيحية متوجهة إلى البحر الأبيض المتوسط من أجل إسماع صوت الرؤية الأمريكية المقدسة والعلمانية. وصل طليعة المبشرين الأمريكيين من الولايات المتحدة إلى الإمبراطورية العثمانية عام ١٨٢٠. وبحلول منتصف القرن كان خلفاؤهم قد غدوا يشكلون أكبر مجموعة أمريكية فى المنطقة. بيد أن المبشرين سرعان ما أدركوا أن من غير المحتمل لهم، وبالرغم من جهدهم الشاق، تحويل المسلمين عن عقيدتهم. بيد أن تعلمهم اللغة العربية أتاح لهم توسيع نطاق أنشطتهم لتتجاوز المسائل الدينية لتشمل مجالات أخرى وبخاصة التعليم. وبحلول عام ١٩٠٠ كان المبشرون، ورجال البر الأمريكيون والمربّون المستقلون قد فتحوا ما يربو على ثمانمائة مدرسة ابتدائية وثانوية تخدم حوالى ٤٠ ألف تلميذ فى

أنحاء المنطقة، علاوة على مؤسسات أخرى للتعليم العالي، بما فى هذا كلية روبرت بتركيا والكلية البروتستانتية السورية (أعيد تسميتها الجامعة الأمريكية ببيروت عام ١٩٢٠). تعلم العرب فى تلك المدارس مقررات علمانية مؤسسة على التجارب الأوربية والأمريكية: التنوير، صعود القومية، وتطور الديموقراطية فى أعقاب الثورتين الأمريكية والفرنسية.

ما دافع تلك الإرساليات التبشيرية آنذاك للمضى فى تنفيذ تلك الأجندة بالشرق الأوسط، وبخاصة مع حقيقة ندرة من تحولوا إلى المسيحية؟ كان أحد دوافعهم إلى هذا إيمانهم المُتقد بأن الولايات المتحدة والأرض المقدسة (لليهود والمسيحيين) مترابطتان بأسلوب لاينفضم عراه وفقا للمشيئة الإلهية. وفى الواقع، فقد جسَّد المبشرون الذين ذهبوا إلى المشرق «الرؤية» الأمريكية المقدسة والعلمانية بما قد يفوق أية مجموعة أخرى.

فى القرن التاسع عشر، رأى البروتستانت الأمريكيون وقد حفزتهم الرابطة الروحية بالأرض المقدسة ومعها قراءتهم المعقدة للإنجيل والتاريخ بعامة، رأوا إقامة الولايات المتحدة بصفتها تحققا للنبوءة الإنجيلية بقيام **أورشليم جديدة**. ورأوا أيضا أن خلاص **أورشليم القديمة** التى دُنست لقرون عديدة كان منوطا بهم وبالمربين ورجال البر من **أورشليم الجديدة** (الولايات المتحدة). ظلت الرغبة لتغيير «المشرق» وتحويله من المنظورين المقدس والعلمانى قوة دافعة مسيطرة بالنسبة للأمريكيين المرتبطين بالمنطقة منذ القرن التاسع عشر وحتى بدايات القرن الحادى والعشرين.

اعتاد المبشرون الذين أناطوا بأنفسهم تنفيذ مشروع خلاص تلك المنطقة كتابة الخطابات إلى أهلهم وتقارير إلى أبناء طوائفهم وصفوا فيها العوائق الكثيرة التى واجهوها بما فى ذلك المشاكل الصحية والأمراض التى تتهددهم والتهديدات لأمنهم الشخصى. وكما كان حال معظم أنحاء العالم فى القرن التاسع عشر، كانت الأمراض متفشية وكانت كثير من المناطق خارج نطاق تحكم الحكومات وتفتقر إلى

قوى لفرض القانون، فى مراجعته الشاملة لتدخل الولايات المتحدة فى المنطقة منذ عام ١٧٧٦ وحتى يومنا هذا، يستخدم المؤرخ مايكل أرن بوفرة مجتزآت من وصف المبشرين لعنف المسلمين وغدرهم، وللأمراض التى أصيب بها المبشرون بشكل شبه دائم، ومشقات السفر وذلك فى محاولة منه لتصوير المنطقة مكانا طاردا غير مضياف. ويوحى بأن جماعة المبشرين ازدهرت بالرغم من كل الأرجحيات والسلبيات الهائلة. أما فؤاد شعبان فيستخدم القرائن الماثلة للتدليل على أمر آخر. نجده مثلا يجتزئ مقولات مثل إعلان المبشر إيلى سميث أنه «كلما اقتربت من أورشليم، تقل رغبتك فى زيارتها! وذلك من توقع مزيد من الألم الناجم عن مشاهد الآثام والشرور الحالية الذى يفوق بهجة تأمل ماضيها المجيد». ثم يذهب شعبان إلى أن كتابات المبشرين لعبت دورا حاسما فى توليد تخيلات الأمريكيين عن الإسلام والمشرق ونشرها.

بيد أنه، وكما بيّن المؤرخ أسامة المقدسى، لم يقتصر أسلوب المبشرين لتخيل المشرق على مسلمى المنطقة فحسب، بل طبقوه على مسيحييها أيضا. وعلى الرغم من أن المبشرين قدموا صورة شائهة للمسلمين، فقد كان عليهم تقديم أنفسهم بصفتهم حملة العقيدة المسيحية الحقة وحماتها بأن يوضحوا، وفقا لمقدسى أن «المسيحية المشرقية لم تكن فاسدة فحسب، بل أيضا أنانية، بالغة التعصب، لا علاقة لها بعامة الناس». من ثم، تمت المزاوجة، فى فكر المبشرين، بين المسيحية المشرقية والإسلام بصفتهما عمودى الفساد الدنيوى والروحى اللذين ينبغى تسديد الضربات إليهما وهدمهما». وهكذا، تتحدى استنتاجات مقدسى تركيز إدوارد سعيد على الإسلام، واستبعاده طوائف المسيحية المحلية، بصفته النقطة المركزية التى استهدفتها جهود غرب الأوربيين والولايات المتحدة المطردة كى يجعلوا من المشرق «آخر». وعلى الرغم من أننى أتفق معه بعامة، بيد أننى، وكما سأبين، فقد كان الإسلام واحدة من بين عدسات ناقدة عديدة تخيل من خلالها الأمريكيون الشرق الأوسط.

تتيح لنا ردود الأفعال على مقتل المقدس چيه. چى كوفينج والمقدس مريام فى حادثين منفصلين فى ستينيات القرن التاسع عشر، تتيح أمثلة دالة على كيفية فهم الأمريكيين للمشرق فى تلك الفترة. بدا وأن الهجومين نفذهما قطاع طرق كانوا يتربصون بالمسافرين. اجتهد إدوارد موريس، رئيس بعثة الولايات المتحدة بالآستانة، دون كلل، ليضمن إلقاء القبض على القتلة ومعاقبتهم بالإعدام ثم قام بكتابة النتائج وإرسالها إلى واشنطون حيث أسهب فى تعليقاته على خصائص الشرق الأوسط. قال إن عملية قطع رأس أحد قتلة كوفينج «أجريت بوقار غير معتاد من أجل ترك انطباع لا يمحى فى أذهان العامة» الذين اعتقد موريس أن مثل تلك العروض تلقى منهم استجابات مُرضية. كان التطبيق السريع لـ «العدالة» لافتا بأكثر من المعتاد وذلك للحصانة التى يتمتع بها المجرمون لدى قتلهم رعايا قوى مسيحية أخرى. ثم تطرق فى تقريره بأسلوب أكثر عمومية لأوضاع التقاها فى المنطقة فوصف الحكومة العثمانية بأنها «أفعى متعددة الرءوس» حيث تعتمد على حكام للولايات يعينون بسبب نجاحهم كرجال بلاط. تحدث أيضا عن يقظته المستدامة ضد «التميزات العرقية والدينية التى تبدو أكثر استعصاء وعنفا فى هذه الإمبراطورية من أية بقعة أخرى فى العالم، وعن الخوف الذى يلازم الباب العالى من اشتعال حروب أهلية بين الولايات المجاورة التى تدين بديانات مختلفة».

وعلى الرغم من صدقية هذه الأحداث، أسهم تعليق موريس عليها، ومعه رواية المبشرين الأعم عن تجاربهم فى الشرق الأدنى، فى خلق صورة مشوهة للمكان وسكانه ولقواه وقضاياه المحركة. كانت الرواية المركزية للمبشرين تدور حول الانحطاط والخلاص، حول تطهير **أورشليم الجديدة** للأرض المقدسة من جميع التأثيرات الفاسدة والمفسدة – سواء كانت إسلامية أو مسيحية مشرقية أو غير ذلك – وعن إحيائها من أجل الحاضر والمستقبل. ذهبت هذه الرواية إلى أنه من خلال المدارس بخاصة سيقوم المبشرون بتدريس الأفكار والقيم الأمريكية وغرب الأوربية

ونشرها، بحيث يخلقون فى نهاية المطاف مُصلحين متعلمين ليبراليين ينتمون للطبقة الوسطى يعملون على تحقيق رؤية المبشرين. انتظرت جماهير المؤمنين الأمريكيين بلهفة هذه النتيجة، وأبقى عليهم مطلعين على العوائق فى سبيل تحقيق هذا الهدف، وعلى ما يحدث من تقدم، من خلال خطابات المبشرين إلى الأفراد، وتقاريرهم الرسمية إلى «مجلس المفوضين الأمريكى للإرساليات التبشرية الخارجية» وهو الهيئة التى كانت تشرف على عملهم التبشيرى. كانت تلك المراسلات تُنشر فى الإصدارات التى يمكن اعتبارها أولى الدوريات فى الولايات المتحدة التى كانت تتعاطى مع أمور الشرق الأدنى مثل: الميشنرى هيرالد، والأمريكان ثيولوچيكال ريڤيو، والعالم الإسلامى: [الدورية ربع السنوية للأحداث الجارية، والأدب والفكر فى أوساط عبدة محمد Mohammedans]، وذا بروجرس أوف كريستيان ميشنز إن ذا مسلم لاندز. وهكذا، أصبحت الإرساليات التبشيرية من خلال أنشطتها ومراسلاتها مع جمهورها من المؤمنين فى الوطن، المرجعيات الأكثر بروزا بالولايات المتحدة فى القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين عن «المشرق» وأثبتت تفسيراتهم نفسها عاملا فاعلا فى تشكيل الكيفية التى تخيل بها الأمريكيون المنطقة ودور بلادهم فيها.

وبحلول منتصف القرن التاسع عشر، كانت تنويعة من المغامرين، ورجال الأعمال، والمهندسين، والجنود، والسياح، وشخصيات أخرى، قد بدأوا فى التجوال بالمنطقة، وعرْضِ أوصافهم الخاصة للمشرق وتقاريرهم عنه والتى ساعدت على تأبيد تلك الأساليب المقدسة والعلمانية لتخيل المنطقة. أصبحت «الأرض المقدسة» الوجهة الأولى لطبقة جديدة من السياح الأمريكيين الذين سافر الكثيرون منهم إلى المنطقة على أمل أن يخبروا مباشرة تلك الأنحاء التى قرأوا الكثير عنها الإنجيل. ولّدت تلك الرحلات متونا كثيرة من أدب الأسفار لقيت إقبالا كبيرا من القراء ومن ثم عملت بمثابة لقاءات مع المنطقة، ليس فقط بالنسبة لمن ذهبوا إليها، بل أيضا

بالنسبة لمن لم تكن لديهم الموارد للذهاب هناك. كان كتاب «الأبرياء بالخارج» لمارك توين، أكثر تلك الأعمال ذيوعا، حيث سعى توين لنقل حسٍّ بالأماكن التى زارها إبان رحلته، تلك الأماكن التى قرأ كثير من الأمريكيين عنها فى نصوصهم الدينية. يُفتتح الكتاب بمشهد المسافرين وهم يتحرقون شوقا، تؤجج توقعاتهم فرضياتهم الرومانسية عن الأرض المقدسة؛ وينتهى الكتاب بالمسافرين وقد تحطمت أحلامهم على أرض واقع المشهد غير المألوف، والفقر، والقذارة التى التقوا بها فى الخارج. روى مؤلفون وكتاب أسفار آخرون بمن فيهم هرمان ملفيل، ودايفيد إف. دور وهو عبد من لويزيانا كان قد جاب أنحاء العالم مع سيده قبل أن يهرب إلى أوهايو، رووا حكاوى مماثلة، وبهذا عملوا على دعم الصورة السائدة للمشرق وللإسلام بصفتهم مختلفين، خطرين، غرائبيين،يهيمن عليهم العنف.

أضاف مبحث «دراسات الشرق الأدنى القديم» طبقة أخرى إلى تخيلات السياح والمبشرين عن انحطاط المشرق ووجوب خلاصه. بدأت الدراسة الأكاديمية للمنطقة فى الولايات المتحدة فى أربعينيات القرن التاسع عشر بمؤسستين كانت كلتاهما وثيقة الارتباط بالمشروع التبشيرى فى الشرق الأدنى. كانت أولاهما هى جامعة ييل والتى كانت قد عينت فى عام ١٨٤١ إدوارد ساليسبرى أستاذاً للعربية والسانسكريت فى استجابة منها للاهتمام الواسع بالإنجيل فى أنحاء نيوإنجلاند، حيث سرعان ما أنتجت جهودا تبشيرية فى الشرق الأدنى وأفادت منها. كان ساليسبرى، والذى كان قد تلقى تدريبه كمستشرق فى أوربا، أول أستاذ فى الولايات المتحدة يجعل من المنطقة بؤرة تركيزه. ساعد، بمرور الوقت، على أن ينشئ فى جامعة ييل مركزا للتدريب فى اللغات القديمة أصبح بإمكانه منافسة مراكز الجامعات الأوربية والألمانية منها بخاصة. أما المؤسسة الثانية فكانت «الجمعية المشرقية الأمريكية» والتى تشكلت عام ١٨٤٢ للتنسيق بين الدراسات عن المشرق وإعداد التقارير عنها، وشملت هذه دراسات جميع الأماكن تقريبا التى تقع إلى

الشرق من أوربا. كانت هذه الجمعية أيضا وثيقة الارتباط بالحركة التبشيرية حيث كان ستة عشر من مجموع المشاركين الأصليين فيها والذين كان عددهم ثمانية وستين مشاركا أعضاء فى «مجلس المفوضين الأمريكى للإرساليات التبشيرية الخارجية».

وعلى مر العقود التالية استمر الاهتمام الأكاديمى بالشرق الأدنى فى التنامى وبحلول سبعينيات وثمانينيات القرن التاسع عشر بدأت عدة جامعات فى تطوير برامج فى دراسات الشرق الأدنى. وكما أوضح بروس كوكلين، فقد كانت الرغبة الروحية لتوكيد محتويات الإنجيل أو العمل على فهم أفضل لها، هى التى تحفز الأكاديميين العاملين فى مجال الدراسات السامية والأشورية والمصرية القديمة وفقه اللغة وعلوم الحفريات. بيد أنه، وبمرور الوقت، اكتسبت تلك الدوافع صبغة أكثر علمانية فيما أصبح القائمون عليها أكثر اهتماما بالأكاديمية المهنية، والملاحظة الموضوعية، وفهم التجربة الإنسانية من بعديها المكانى والزمانى. وفى غضون ذلك، تنافس رؤساء الجامعات الذين دعموا أولئك المتخصصين الجدد بجامعات ييل، وبنسلفانيا وچون هوپكينز وشيكاغو وغيرها، تنافسوا على تسيد هذا المجال. اجتهدوا كى يقدموا جامعاتهم ومتخصصيها كأفضل مرجعيات فى تاريخ الحضارات القديمة، والمسيحية المبكرة، أو أحيانا، الإسلام المبكر. ولتحقيق هذا، تعاقدوا مع أفضل المتخصصين الأوروبيين - الألمان بخاصة - فى المجالات المختلفة الأمر الذى أضفى طبيعة عبر/دولية مميزة على دراسات الشرق الأدنى بالولايات المتحدة. وبهذا الأسلوب أسست تلك الجامعات سابقة لدراسات الشرق الأوسط الحديث اللاحقة، حيث وفر المتخصصون من أوربا وأنحاء أخرى، مرة ثانية، الكثير من الخبرة المبدئية المتطلبة لتدريب الأمريكيين، وبخاصة فى اللغات ودراسة الإسلام.

وبعامة، فإن الباحثين من الولايات المتحدة، أو من الأصول الأوربية الذين

درسوا الحضارات القديمة، أو المسيحية المبكرة أو الإسلام، فى نهاية القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، فعلوا ذلك عادة من داخل إطار «استشراقى». وكما أوضح زكارى لوكمان، فقد ظهر هذا الأسلوب لفهم «المشرق» مواكباً لتوسع الإمبريالية الأوربية ومتناغما معها بدءا من نهاية القرن الثامن عشر وطوال القرن التاسع عشر. كان الأكاديميون البريطانيون والفرنسيون أول من اشتغل بالدراسات الجادة للمنطقة، بيد أن الأكاديميين والجامعات الألمانية كانوا قد احتلوا موقعا لافتا فى ذلك المجال بحلول السنوات المتأخرة من القرن التاسع عشر. كانت إحدى الفرضيات المركزية فى الإطار الاستشراقى هى أن عالم الإسلام كان حضارة متمايزة أصابها الركود والانحطاط لمئات من السنين قبل أن تدخل حالة من الاضطراب والجيشان فيما التقت بالحضارة الأوربية والأمريكية الأكثر سموا ورقيا بدرجة هائلة. ومع تركيزهم على أن الإسلام نفسه كيان ثابت لا يتغير، تدرب الباحثون فى مجال اللغات المتطلبة، وفقه اللغة والنصوص التأسيسية التى افترُض أنها قادرة على شرح كل ما هو إسلامى، بغض النظر عن الفترات والأزمنة والأماكن. انتهى الأمر بالباحثين الاستشراقيين إلى تشكيل مجموعة منعزلة تستنسخ نفسها، وكان يتم توزيعهم على الأقسام وفقا لمجال تركيزهم لا على أساس المباحث والتخصصات المهنية، وكانوا يستخدمون نفس المناهج البحثية بشكل أساسى. وهكذا ظل الاستشراق هو الإطار المهيمن فى تدريب المتخصصين الأكاديميين وفى تخيل الشرق الأوسط إلى أن أُجبرت الحرب العالمية الثانية الباحثين على تطوير أساليب جديدة للتفكير فى المنطقة.

تركت تخيلات أكاديميى القرن التاسع عشر، ورجال الأعمال والصحفيين والإرساليات التبشيرية والسياح، تخيلاتهم للمشرق كعقبة فى سبيل إنجاز المشروع المقدس والعلمانى الأمريكى، تركت عدة موروثات عميقة وباقية. على المستوى الأساسى الأول، فقد تركت مجموعة من الناس ذات شبكة من الارتباطات استخدم

من أتوا بعدهم وجودهم وانتسابهم إليهم ليزعموا لأنفسهم وطوال أجيال تالية معرفة خاصة وخبرة بعلاقات الولايات المتحدة بالمنطقة. وفي بعض الحالات اكتسبت تلك الارتباطات، حرفياً. شكل الشأن العائلي طوال القرنين التاسع عشر والعشرين كما يوضح لنا تاريخ عائلة دودج. كان رجل البر الأمريكي وليام إيرل دودج (١٨٠٥ – ١٨٨٣) مؤسس منشأة فِلپس، دودج وشركائهما الأمريكية للتعدين. تسلم وليام الابن أمور التعدين فيما ذهب دافيد إلى الشرق الأوسط حيث ساعد في ستينيات القرن التاسع عشر على إنشاء الكلية البروتستانتية السورية بأموال من شركة التعدين. صعد ابن وليام الأصغر، كليفلاند هودلى دودج الصفوف في مؤسسة فلپس للتعدين وساعد في تمويل حملة وودرو ويلسون الانتخابية. سلك ابنا كليفلاند التوءم، كليفلاند إيرل وبايارد مسالك العائلة حيث استمر كليفلاند يمارس أعمال التعدين، فيما واصل بايارد اهتمامات العائلة بالشرق الأوسط ومصالحها هناك. بدأ بالعمل عضو هيئة تدريس بالكلية السورية البروتستانتية في عام ١٩١٣، ثم عمل على إدارة الجامعة كرئيس لها ما بين عامي ١٩٢٢ و١٩٤٨. وفي النهاية تمازجت اهتمامات العائلة في التعدين والتبشير في دافيد ابن بايارد حيث عمل بآرامكو ما بين عامي ١٩٤٩ و١٩٥٤، ثم في خط الأنابيب عبر بلاد العرب (التاپلاين) من عام ١٩٥٤ وحتى تقاعده عام ١٩٧٦. ثم بعد تقاعده، عاد مرة أخرى وشغل منصب رئيس الجامعة الأمريكية ببيروت في عام ١٩٨١، ليصبح، وكما ذكر روبرت ڤيتاليس «أول رهينة لأمريكا بلبنان» حينما اختطفه المقاتلون الشيعة أثناء الهجوم الإسرائيلي على بيروت عام ١٩٨٢. قد تكون أسرة دودج أفضل نموذج لأسرة ذات روابط متعددة الأوجه بالمنطقة دامت لفترة طويلة. لكن ثمة آخرين أيضا مثل عائلات إدى وهوسكينز ومور، الذين تداخلت أعمالهم ومصالحهم بالمنطقة كجزء من المشاريع التبشيرية والتعليمية، وظلوا لاعبين لهم أدوار حاسمة في شبكة إخصائيي الشرق الأوسط بعد ذلك بعقود عديدة.

بالإضافة إلى خلقهم سلالات من الأفراد النافذين الذين زعموا أن لهم خبرة بالمنطقة، فقد كان للبعثات التبشيرية ومعهم الأكاديميون المتخصصون فى الشرق الأدنى، ورجال الأعمال، والمستشارون، وكتاب الأسفار دور حاسم فى ابتداع رواية عن تخلف الشرق الأوسط روجوا لها فى الولايات المتحدة وحافظوا على استدامتها. لم تؤكد تلك الرواية على تخلف المسلمين فحسب بل أيضا على تخلف مسيحيى المنطقة. فبعد كل شىء فإن كان زعم هؤلاء المبشرين أن مهمتهم هى خلاص المنطقة، فقد كان عليهم أن يعتقدوا أن عقيدتهم المسيحية الخاصة ليست أكثر مصداقية من الإسلام فحسب، بل أيضا من العقائد المسيحية الأخرى الموجودة بالمنطقة، وجهدوا لإثبات ذلك. من ثم، فقد أضفوا على المسيحيين هناك نفس الصفات التى أضفوها على المسلمين. وبتجاهل المبشرين، وكتّاب الأسفار، والآخرين الفروق الدينية والطائفية والمذهبية فى القرن التاسع عشر وإضفاء سمات زائفة عليها فقد رسخوا سابقة وضع كل سكان الشرق الأوسط تقريبا داخل إطار رواية التخلف والتى ظلت قائمة حتى وقت متأخر من القرن العشرين.

أيضا، تخيلتْ مرجعيات القرن التاسع عشر تلك «المشرق» وتدخّل الولايات المتحدة فى شئونه بأسلوبين لا تاريخيين بشكل جوهرى، استند كل منهما بدرجة هائلة على مشروع الولايات المتحدة الذى أدمج فيه الشقان المقدس والعلمانى. كانت البعثات التبشيرية الأمريكية والسياح والكتاب وقراء كتابات الأسفار والذين تخيلوا جميعهم «الأرض المقدسة» وأنها بانتظار الخلاص على أيدى الولايات المتحدة، يعون جميعهم تلك الأرض كما كان يحتمل لها أن كانت منذ ألفى عام فى وقت يسوع المسيح، أو كما يحتمل لها أن تكون فى المستقبل بعد تحولها المقدس إلى شكل معين من المسيحية وتحولها العلمانى لتكتسب خصائص نموذج الولايات المتحدة السياسى والاجتماعى. عمل الأكاديميون المتخصصون فى دراسات الشرق الأوسط فى السنوات المتأخرة للقرن التاسع عشر على استمرار أساليب التفكير هذه عن

المنطقة، تلك الأساليب التى أنكرت عليها حاضرها التاريخى المتمايز بأن ركزوا بأسلوب يكاد يكون حصريا على الشرق الأدنى القديم، فيما أهملوا دراسة المنطقة كما هى فى السنوات المعاصرة. كان التخيل اللاتاريخى الثانى - الذى كان على نفس الدرجة من القوة والإشكالية - يتعلق بالولايات المتحدة وعملائها فى الشرق الأوسط حيث تبدت الولايات المتحدة وفقًا لهذا التخيل نمطا للدولة والمجتمع مختلفا جوهريا عن أى نمط كان قد وُجِد سابقا وحتى وقتئذ؛ قدّموها بلدا يقف خارج المشاكل التاريخية والعمليات التى تمر بها البلدان الأخرى. علاوة على ذلك، ومن خلال الأنشطة التبشيرية والتعليمية بالخارج، اضطلعت الولايات المتحدة ومواطنوها بمسئولية الارتقاء بالآخرين وتغييرهم من خلال الإتيان بنموذج الولايات المتحدة الاستثنائى المزعوم إلى الشرق الأوسط وبقية العالم. ومعاً، أوحى هذان التخيلان اللاتاريخيان بعدم استطاعة «المشرق» التغير وحده، ومن ثم، أوعزا بأن الولايات المتحدة هى وحدها المصدر المشروع لإحداث التغيير فى المنطقة. وهكذا أضحى أسلوب تخيل الولايات المتحدة والمشرق هذا عميق التجذر فى علاقات الولايات المتحدة بالشرق الأوسط طوال العقود التالية ومازال تأثيره فاعلاً حتى وقتنا هذا.